

مكانة الفنون الجميلة

العظماء الذين يعرف لهم التاريخ فضاهم من أجل العقيدة والخلق والسلوك التوميم فيحتفظهم في سجل الخلود .

ولكن الناس في عصر الظلمات وفترات التحريفه الديني، وسيطرة الجاهدين على شؤون الحياة قد شرهوا جمال هذه الفنون، وطعنوا فيها، ورحلوا عليها كلها حملة شعواء، بحجة أن الأديان لا ترضى عن هذه الفنون، مع أن الحق ينادى بأن الله أباح لعباده الطيبات، وأجاز لهم أن يمتنعوا نفوسهم بكل طيب طاهر من الفول والتسلية، مادام لا يتعارض مع عقيدة، ولا يؤدي إلى وثنية أو إثمرك؛ ومن العجيب الذي يجب أن يذكر هنا أن بعض رجال الدين الإسلامي المشهورين بالورع والتقوى كالإمام الغزالي مثلا والإمام الزهري قد دافعوا عن العناء والموسيقى دفاعا مجيدا، وشرحوا للناس مبلغ تأثيرهما في تهذيب الأخلاق وإصلاح الطبايع . .

وفي هذه الفترات المظلمة التي تصاب فيها الأهم بالضعف والخور وسوء الفهم اعتمد الناس في الفنون الجميلة اعتمادا سيئا، فحاربوها واستخفوا بها وأعرضوا عنها، كما سخروا من أصحابها، وعدوهم من رعاي الناس وغوغاء المجتمع، وليس بعيد عنا ذلك الزمن الذي كان المجتمع يعد فيه الصحفي رجلا حتميرا، وبعد الأديب رجلا صعلوكا . وبعد الشاعر رجلا شحاذا، حتى سوات لبعض الناس نفوسهم أن يمزوا زواج بناتهم من أصحاب هذه الحرف مهما كانت منزلتهم، وقد جر هذا الظن السيء على أصحاب الفنون الجميلة الفقر والتكران، والجوع والحرمان، مع عظم رسالتهم في الحياة إذا استقاموا . .

أما اليوم وقد نهضت الدولة نهضتها، وأخذت الأمة العظيمة العزيرة طريقها إلى المجد والعظمة، فقد تغير الحال وتبدل الأمر، وأصبحنا نرى الفنون الجميلة ممثلة في الشعر والكتابة والصحافة والرسم والتصوير والتمثيل والموسيقى

ليس الإنسان في حياته هذه مكونا من لحم ودم فحسب، ولا إنسان حيوانا كسائر الحيوانات، بل هناك في المرء ما هو أهم من هيكل العظام وشرايين الدماء . هناك القلب والعقل، والروح والشعور، والإحساس والعاطفة؛ هذه الهبات الربانية الثمينة تحتاج إلى غذاء ودواء غير غذاء القوت ودواء الطعام؛ ولذلك يحس الإنسان في كثير من الأحيان بجوع قتال، ليس مصدره خلو المادة من الطعام، أو حاجة البدن إلى الغذاء، بل مرجعه إلى جوع في العاطفة، وتنص في اطمنئنان القلب واستقامة الشعور . . ولذلك هدى الخالق سبحانه بني البشر إلى ينبوع الغزير الدائم الذي يفيض على القلب بالمسرة، وعلى الروح بالبهجة، وعلى العاطفة بالسمو والعلو، وعلى الشعور بالهدوء والاطمئنان؛ ذلك ينبوع الساحر الجليل هو الفنون الجميلة النقية التي تتمثل في الصور الرائع الجذاب، أو النغمة الحلوة المنسجمة، أو القطعة الأدبية البليغة، أو اللوحة الفنية المتقنة، أو المسرحية المحبوبة الموفقة، أو القصيدة الرائعة المؤثرة؛ وكأنما أراد الرحمن الرحيم، واهب الفضل والعطاء لكل موجود، أن يعين الإنسان على صخب الحياة ومتاع العيش ومضايقات الدنيا، فأرشدته إلى هذه الفنون الجميلة، لتكسر سلوته في همه، وأينسه في وحدته، وسميره في وحشته، وسبب سعادته وهنائه عند ضيقه وشقائه .

وقد كان من الواجب على الإنسان في مختلف الأماكن من المعمورة، ومنذ الأزل القديم، إلى آخر الزمن الطويل أن يرحب كل الترحيب بهذه الفنون الجميلة، وأن يرهاها حق رعايتها؛ ويرفع من قدرها ومنزلتها، لما لها من عظيم الفوائد وجيل المنافع، ولا شك أنها قد كان بين الناس كثيرون جاهدوا من أجلها أفضل الجهاد، ودافعوا عنها أحسن الدفاع، وهؤلاء هم الجنود المجهولون والفنانون

وغيرها تدر على أصحابها الأموال الكثيرة والأرباح الضخمة والغنائم المغرية ، وأصبحنا نرى هؤلاء الفنانين يحتنون مراكزهم في الهيئة الاجتماعية ، ويحملون الألقاب الرفيعة من المليك أو الحكومة ، ويشتركون في أعمال رسمية وشعبية لها مكانتها وخطورتها ، ويتزوجون من أرقى الأسر والعائلات ، ويختلطون بأرفع الطبقات ، ويركبون أقم السيارات ، ويننون شاهق العمارات ، ويشرفون على توجيه الإصلاح ، وتظهر صورهم وأخبارهم في الصحف والمجلات والكتب كأبطال ، وتحديث عنهم الأندية والمحافل ، حتى صار لهم ثراء عريض ، وجاه واسع ، وشهرة لا تحد .

وحسبنا مثلاً أن نذكر في ميدان الشعر أسماء لامعة لها مكانتها وشهرتها مثل صالح جودت ومحمود إسماعيل وإبراهيم ناجي وخليل شبوب ومحمد الأسمر ، ولا داعي لذكر الراحلين المشهورين الخالدين مثل شوقي وحافظ ومطران والجنارم والبارودي . وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أيضاً في باب الصحافة والكتابة أسماء عظيمة مشهورة مثل هيكل والعقاد وتوفيق دياب وطه حسين ومحمود أبو الفتح وكريم ثابت ومحمود تيمور وفؤاد صروف ، وفي باب الغناء والموسيقى أم كلثوم وعبد الوهاب وزكريا أحمد والسنباطي ، وفي التمثيل يوسف وهبي وحسين رياض وحسين شفيق ، وغير هؤلاء كثير مع اختلاف في المشارب والأهواء .

ولو اردنا الإحصاء أو الاستقصاء لطال المدى وتشعب الحديث ، فحسبنا أن نقول إن الشريط السينمائي مثلاً أصبح يربح الآلاف من الجنيهات ، والحفلة الغنائية تأتي بإيراد يبلغ المئات ، والكتاب الواحد يربح مئات الجنيهات ، والمقالة الواحدة قد يكون ثمنها عشرة جنيهات ، وكذلك القصيدة الواحدة ، واللوحه الفنية من رسم الرسام أو تصوير المصور قد تباع بعشرات من الجنيهات . وهكذا نرى أن الفنون الجميلة التي كانت بالأمس مهانة محقره قد أصبحت اليوم جليلة الشأن خطيرة المكانة ، تصل صاحبها بأسباب الغنى والمجد ، والجاه والثروة ..

وقد استطاع كثيرون من الكتاب والصحفيين أن يصلوا إلى مناصب الحكم ومقاعد الوزارة وعضوية البرلمان

أوتقلدوا الوظائف الكبرى هنا وهناك . مما يدلنا على ما احتلته الفنون الجميلة اليوم من رتبة سامية ودرجة عالية . .

على أنه يجب أن نتذكر على الدوام أن ديننا وعاداتنا وتقاليدينا وقوميتنا توجب علينا أن نتخذ من هذه الفنون وسيلة قويمه مجتدية لربية الذوق السليم ، وإرهاف الحس الكريم ، وتهذيب الخلق القويم ، وأن نتخذ من الأسباب ما يجملها متفقة مع عقائدنا وأخلاقنا وثقافتنا العربية الشرقية . بدل أن نسرف في أمر هذه الفنون حتى نتخذها للهو والفجور ، أو اللعب الفاسد أو الترف الزائد أو التفضيل الضار ، فيا أهل هذه الفنون الجميلة ، لقد ساق الله إليكم حياة كنتم محرومين منها ، ومجدداً كان بعيداً عنكم ، وثناء عريضاً لا بعدد ، وأموالاً لا تعد ، وشهرة وصيتاً ، فاتقوا الله في أوطانكم ، واتقوا الله في أبناء الوطن وأخلاقهم ، وابدلوا جهودكم كلها في النروض بأخلاقنا وآدابنا ومشاعرنا ، حتى تكون أمتنا خير أمة أخرجت للناس . والله يهدي الاملين .

ومهما يكن من شيء فإننا لا نستطيع أن نكتم أن الدين لا يرضى عن كثير من مظاهر الفنون الجميلة وموضوعاتها بأشكالها الحاضرة ، لما أصابها وأصاب أهلها من تحلل وانحراف ، وليس معز حديثانها وعنهم أننا نقبلها أو نقبلهم بسببناهم ، بل نريد أن ننص على خطر هذه الأشياء في الحياة أولاً ، وأنه من الواجب علينا أن نحكم فيها كلمة الدين وأن نخضعها لخدمة تعاليمه . وذلك يمكن بتصفيتها من كل ما يتعارض فيها مع أصوله ، بعد أن ننظر إليها نظرة المسلم السامح الذي يعرف روح الإسلام . ويومئذ سنستطيع التوفيق بين مطالب الدين ومطالب الدنيا .

وليطمئن المترتم المتشدد ، فإننا عند إحكام النظر في تراثنا الإسلامي سنجد في مجالات التسهيل والترخيص الديني ما لا يتعارض مع أصول هذه الفنون المستقيمة ، وما نشأ العداء بين الدين والفن السليم القويم إلا عند الجهل بالدين وسوء الاستغلال للفن ، وقد آن الأوان لفهم الدين فيها صحيحاً واستخدام الفن لخدمته استخداماً كريماً .

أحمد الشرباصي

المدرس بمعهد القاهرة الثانوي